شيد الرومان، قبل 19 قرنا، جسرا تعلوه سواق لنقل المياه، النابعة من معبد المياه بمدينة زغوان، إلى قرطاج التونسية، البعيدة نحو 60 كيلومترا.

رممت الحنايا في أواسط القرن الـ19، علما أن هذه العيون لا تزال تزود حتى اليوم محافظة زغوان بمياه الشرب وأجزاء كبرى من تونس العاصمة.

أكثر من 100 ألف مهاجر وصلوا إلى جنوب أوروبا بالقوارب، حسب إحصائيات هيئات اللاجئين، وقد لقي 1800 شخص حتفهم خلال رحلات الهجرة السرية.

معبد المياه بزغوان نبع روماني يروي تونس منذ 19 قرنا

● الحنايا جسور مقوسة تنقل المياه على امتداد 60 كلم ● معبد نبتون يمنح سكان العاصمة ماء الحياة

معجزة هندسية، هكذا يصف باحثو الآثار معبد المياه، المتربع على أحد سفوح جبل زغوان، على ارتفاع 1295 مترا عن سطح البحر، شيّده الرومان منذ القرن الثاني للميلاد معبدا، قدّسوا فيه المياه النابعة من تلك المرتفعات الشامخة، وتبرّكوا به لأنه يمنح الحياة لقرطاج آنذاك وأهل تونس لحد اليوم.

يسرى وناس

❏ يرسو جبل زغوان، البعيد 60 كلم عن العاصمة تونس، على مائدة مائية وعيون عذبة لا تنضب منذ آلاف السنين، بل لا تزال تروي حتى اليوم ظمأ مدينة تحمل اسم الجبل نفسه، وكذلك سكان العاصمة التونسية.

يقول عبدالقادر هنية، دليل سياحي من سكان زغوان، إنّ "معبد المياه هو الوثيقة التاريخية الأساسية، بل تكاد تكون الوحيدة لهذه المدينة، كما أنه دليل على أهمية المياه فيها، والتّي تميزها عن غيرها من المدن".

ويعتبر هنية أن "معبد المياه يعد معجزة معمارية وهندسية، وشاهدا على رغبة الإنسان في تلك الحقبة الزمنية في جعل حياته عصرية أكثر فأكثر، من خلال ابتكار أساليب متجددة رغم صعوبة الحياة".

يقع المعبد على مسافة 3 كلم، من المدينة العتيقة في زغوان، المقامة فوق أنقاض مدينة رومانية، كانت تسمى حينها "زيكوا"، كما أن وجوده مرتبط بـ"عين زغوان"، التّي تعدّ واحدة من أكبر عيون المياه في البلاد.

وحسب حمدان بن رمضان، الباحث في علم الآثار بالمعهد الوطني للتراث، "بنيت الحنايا قبل بناء معبد المياه، وقد أمر الإمبراطور الروماني أدريانوس بتشييد الحنايا وجلب المياه من زغوان إلى قرطاج التي كانت مركز الحكم آنذاك، بعد أن اجتاحت البلاد 5 سنوات من الجفاف".

الجدير بالذكر أنّ الحنايا، التي ما زال جزء كبير منها ماثلا على امتداد المسافة بين مدينتي تونس وزغوان، هي بمثابة جسور معلقة تعلوها سواق تنبسط فوق أقواس وأعمدة شاهقة، شيّدت في العهد الروماني لنقل المياه، على مدى 60 كلم بين زغوان وقرطاج.

ويتابع بن رمضان "شيّدت في تونس معابد كثيرة عبر تاريخها، منها معبد الإله جوبيتير، وهو الإله الأعظم، ومعبد مارس، وهو إله الحرب والسلم، ومعبد ماركور، وهو إله التجارة، فضلا عن معابد آلهة المياه والبحار، نبتون، ولكن معبد المياه بزغوان يعدّ من أكبر المعابد التي بنيت ولها علاقة بالمياه، كما أنه من أكثر المعالم التّي حافظت على صبغتها الأولى منذ نشأتها".

وأقيم المعبد على الطراز الرّوماني، بطريقة تم الاعتماد فيها على حجارة، جلبت من جبال زغوان وضواحيها، بالإضافة إلى استعمال الرخام المصري واليوناني والإيطالي للزخرفة.

ويتكوّن المعبد من أدراج يمينا وشمالا، تأخذ الزائر مباشرة إلى ما كان يسمى حينها بـ"بيت المقدس" أو "المعبودة"، وهي "نبتون" آلهة الماء والبحر عند الرومان التي كانت تقدم لها القرابين وتقام الطقوس وتؤدى العبادات، ثم نجد الصّحن والرواق المخصّص للتعبّد، ومنه تحملك الأدراج إلى الحوض الذّي تتجمّع فيه المياه، في طريقها نحو الحنايا، لتبدأ الرحلة نحو قرطاج القديمة.

"هذا الحوض هو بمثابة نقطة وصل ما بين الدّيني واليومي، لدى الرومان آنذاك"، حسب ما ذهب إليه بن رمضان.

وحسب المجسمات التوثيقية، فقد نحتت على جوانب المعبد عروسا بحر وماء، أما على يمينه ويساره فهناك 12 محرابا، في كل واحد منها تمثال لعروس الماء.



كما كان المعبد في السابق مكسوّا بقباب وأعمدة، على الطراز الروماني، ولكن لم يبق لها أثر اليوم، فقد نقلت لاستعمالها في بنايات أخرى كالمساجد والحمامات والفنادق.

ووفق الباحث في علم الآثار، فإنه "مع بداية القرن 4 بعد الميلاد، وعندما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، تم إخراج كل التماثيل التي لها علاقة بالوثنية، من المعابد والمعالم، وتم إيداعها كعناصر فنية استعملت للزينة في الحمامات، كما تمّ ردم بعضها".

واستطرد "مع الفتوحات الإسلامية، وتحديدا في بداية القرن السابع للميلاد، تمّ تحطيم التماثيل، فيما اعتمدت الأعمدة والتيجان في المساجد كالجامع الكبير في زغوان الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الـ17".

وأضاف أن "هناك معلمين آخرين يقعان في محيط المعبد تم اكتشافهما مؤخرا، الأوّل سنة 1998 وهو معبد مياه بيضاوي الشّكل، لا تزال الحفريات حوله قائمة إلى اليوم، ومعبد المياه الصغير الذي يعود اكتشافه إلى سنة 2001 والدّراسة حوله لا تزال متواصلة".

وكانت قرطاج آنذاك عاصمة أفريقيّة، وقد تطلب بناء حمامات أنطونيوس وهي أكبر حمامات، في شمال أفريقيا، توفر مورد ماء متواصل، لذلك قام الجيش الروماني بدراسة فنية وطوبورغرافية وتبيّن أن عين زغوان هي الأقرب وهي الأقدر على فعل ذلك.

ودام إنجاز الحنايا الرومانية ووصلها من زغوان إلى قرطاج 30 سنة. ووفق الباحث فإن "المشروع يكتسب أهميته، من خلال قدرة من شيّده آنذاك على مواجهة الصعوبات الجغرافية والبناء في مناطق مرتفعة وأخرى منخفضة، تطلبت إقامة أقواس عالية لنقل المياه، وهو إنجاز قياسي بالنّظر إلى تلك الفترة الزمنية وللمعدات الموجودة آنذاك".

كما يعتبر بن رمضان أن "رمزية الماء تكمن في القيمة التّي كان الرومان والإغريق يولیانها له، فقد كانت الآلهة، تعبد كواسطة بين العبد وبين القوة الطبيعية المتمثلة في الماء، المقدسة لديهم".

من جانبه، يضيف عبدالقادر بن هنية، أنه تم اختيار مدينة زغوان "لتميزها بعيون تتدفّق من أعالي الجبال، ينبع منها ماء زلال، لا يجف ولا ينضب، لا سيما وأن المدينة أقيمت على سفوح هذا الجبل، وتعلو مستوى البحر".

كما يشير إلى أن "المياه المخزنة حينها قدّرت بـ25 ألف متر مكعب، وكمية المياه التي كانت تصل من زغوان إلى قرطاج قدرت بـ32 مليون لتر يوميا".

ويتابع أن "معبد المياه شيد لعبادة الماء وتقديسه ولمنح الحياة لسكان تونس، في ذلك الوقت وهو ما يعكس معرفة الإنسان في تلك العصور بقيمة هذه الثروة الطبيعية ومكانتها في حياته اليومية، على عكس المعابد الأخرى الموجودة في العالم والتي أقيمت لدفن الرموز حينها".

يذكر أن استغلال مياه زغوان تواصل، خلال فترة الاحتلال الفرنسي لتونس، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بإعادة ترميم الحنايا في أواسط القرن الـ19، واستغلالها من قبل البايات، وهم حكام تونس العثمانيين آنذاك، علما أن هذه العيون تقوم إلى اليوم بتزويد منطقة زغوان وأجزاء هامة من تونس بمياه الشرب.



معبد المياه لا يضم قبورا لأن فلسفته الرومانية تقوم على منح ماء الحياة

عبدالقادر هنية:
معبد المياه معجزة هندسية ووثيقة تاريخية أساسية لزغوان

يا صديقي، هذه مواصفات رحلة الموت للهرب من الجحيم

لم يكن جاد محمد يرغب في ترك سوريا، وبعد أكثر من أربعة أعوام على بدء الحرب الطاحنة فيها، قرّر المجازفة وبلوغ برّ الأمان.. صديق طفولته، بمخيم اليرموك الفلسطيني على مشارف العاصمة دمشق، لا يزال يحاول فغادر متخذا مسلكا آخر، ليتباين مساراهما، في البحث عن حياة أفضل وأكثر أمنا.

❏ **بيروت** – بعد سنوات عدة من المحاولات للهجرة بشكل قانوني، تخلى جاد محمد، 25 عاما، عن المحاولة واستقل قاربا مع أحد المهربين قاصدا السفر إلى إيطاليا. وفي نهاية المطاف نجح في الوصول إلى دنمرك. أما حسن فقد حاول السفر بشكل قانوني إلى أوروبا ولكن محاولاته باءت بالفشل، ويعيش حاليا في تركيا ويفكر في السير على خطى جاد.

والجدير بالذكر أنه حتى الآن من هذا العام، وصل أكثر من 100 ألف مهاجر إلى جنوب أوروبا بالقوارب، ولقي 1.800 آخرون حتفهم خلال الرحلة. ويتوقع أن يلقى 30 ألف غيرهم حتفهم غرقا قبالة سواحل أوروبا هذا العام. وفي مواجهة هذه الصعاب الهائلة، ما هي النصيحة التي يمكن أن يسديها صديق مرّ بهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر إلى صديق آخر يفكر في أن يسلك الطريق ذاته؟

لقد كانت الرحلة التي سلكها جاد إلى أوروبا أبعد ما تكون عن المباشرة، فعقب هروبه من سوريا، تنقل عبر العالم العربي بحثا عن ملاذ آمن، فتوجه إلى الجزائر ولبنان وليبيا، وفي كل دولة من هذه الدول وجد الأبواب إما مغلقة أو بالكاد مفتوحة في وجهه.

يقول جاد إن العالم العربي قد تخلى عنه، مضيفا "تتبع الدول الأوروبية نهجا تقدميا تجاه اللاجئين، بخلاف لبنان وسائر الدول حيث تنتشر فيها العنصرية والإذلال".

ويفسر مراقبون ذلك بأن العالم العربي استقبل ملايين اللاجئين في حين ظلت أبواب أوروبا مغلقة في وجههم إلى حد كبير.

وفي نهاية المطاف سافر جاد إلى مدينة مرسين، الميناء التركي الجنوبي، حيث انضمّ إلى آلاف المهاجرين واللاجئين الذين ينتظرون ركوب قوارب المهربين إلى إيطاليا.

يوضح "قال لي المهرب إن القارب كبير ويحتوي على سترات نجاة للجميع والكثير من الطعام والشراب، لكن الواقع كان مختلفا جدا. لقد كان مجرد قارب للصيد ولم تكن هناك سترات نجاة، وكان هناك الكثير من الأشخاص على متنه لدرجة أنه لم تكن هناك أي مساحة على الإطلاق". وعقب مضي ثلاثة أيام من تلك الرحلة، قام مهربون مصريون بنقلهم إلى قارب ثان.. وقد أمضوا ثمانية أيام أخرى في البحر قبل أن يصلوا إلى الشواطئ الإيطالية.

يقول "عندما ضربت الأمواج القارب، توقفت المحركات عن العمل وظننا أننا سنموت في أي لحظة"، مستطردا "قوارب التهريب خطرة جدا، لم يكن لدينا سوى خيارين اثنين فقط: إما أن نعيش حياة كريمة أو نموت في عرض البحر".

ركوب قوارب الموت أرحم من سعير الحرب بالنسبة إلى السوريين

30,000 لاجئ العدد المتوقع للموتى غرقا قبالة سواحل أوروبا هذا العام

ومن إيطاليا، استطاع جاد أن يهرب نحو دنمرك، حيث طلب اللجوء. وقال إن الحياة الآن "جميلة.. يمكنني السير في الشارع مثل أي شخص آخر".

أما صديقه حسن، الذي فضل مناداته بهذا الاسم إخفاء لهويته، فهو يعيش حاليا في ضواحي مدينة إسطنبول التركية. غير أنه يطمح إلى أكثر مما تقدمه تركيا على غرار جاد. يقول "أنا هنا منذ 11 شهرا، أحب المكان ويمكنني البقاء لفترة أطول.

ولكن تركيا لا تمنح الجنسية أو حقوق اللجوء التي تقدمها أوروبا.. إنها تعطينا إقامة مؤقتة، وهي الإقامة ذاتها التي تتمتع بها عائلتي (الفلسطينية) منذ 60 عاما في سوريا.. لا أريد أن أظل عديم الجنسية بقية حياتي".

"لقد كانت القوارب دائما أحد الخيارات المطروحة، ولكننا لم نرد استخدامها، الطقس الآن أفضل. الناس يذهبون إلى اليونان.. نجح صهري في الوصول إلى هناك، وهو الآن في مقدونيا".. غير أنه يقبع في السجن بسبب الدخول بطريقة غير قانونية. هكذا يعبر حسن بمرارة الواقع عن أمله في غد أفضل.. يقول "أخشى الغرق، ولكن المرء يصل إلى مرحلة لا يهمه فيها أي شيء".

وعن النصيحة التي يمكن أن يقدمها لصديقه القديم حسن، يقول جاد "لا أنصح أي صديق أو قريب أو حتى عدو باختيار الطريق البحري، ولكن ليس لدى السوريين أي خيار أو مكان آخر للجوء".